ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Prof. Dr. Aumed Najmadin Gamil
College of Islamic Sciences, Salahaddin University.

Assist. Lect. Ahmed Ameen Mohammed
College of Islamic Sciences, Salahaddin University.

* *Corresponding author: E-mail* :
ahmed.mohammed@su.edu.krd
009647504861589

Keywords:
Al-Bouti
Economic communism
Matter is the basis of everything
Denial of the unseen
Criticism.

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 19 June. 2022
Accepted 3 July 2022
Available online 29 Nov 2022
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©2022 COLLEGE OF Education for Human Sciences, TIKRIT UNIVERSITY. THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

The Words of Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti about the Basis of the Economic Communist Doctrine

A B S T R A C T

It is known that Islamic economics has received great interest among scholars, as they have served this science a great service, whether through their presentation of the Islamic economic system of divine origin or through their opposition to man-made economic systems, which are not free from loopholes and lapses, and the communist economic system of those systems, it is based on two main foundations, namely: the statement that matter is the basis of everything and the denial of the unseen, and the material interpretation of history second, but the scholars confronted this doctrine, and they never failed to explain its truth, and Al-Bouti - may Allah have mercy on him - is one of those scholars who have a long history of stamping the claims of the owners of this doctrine with conclusive evidence.Accordingly, this research presents Al-Bouti's approach - may Allah have mercy on him - in critiquing the economic communist doctrine, and then he explains the basis of the economic communist doctrine, which is manifested in two foundations as we referred to them earlier, and in the last he presents the criticism of Al-Bouti for this doctrine, followed by a commentary. The researcher supports this criticism, all through an introduction, two chapters and a conclusion© 2022 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.29.12.3.2022.04

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

كلام محمد سعيد رمضان حول أساس المذهب الشيوعي الاقتصادي

أ. د. أميد نجم الدين جميل/ كلية العلوم الإسلامية / جامعة صلاح الدين/ أربيل
م. م. أحمد أمين محمد/ كلية العلوم الإسلامية / جامعة صلاح الدين/ أربيل

الخلاصة:

من المعلوم أن الاقتصاد الإسلامي قد حظي باهتمام بالغ لدى العلماء، حيث خدموا هذا العلم خدمة جليلة، سواءً من خلال عرضهم للنظام الاقتصاد الإسلامي ربّاني المنشأ أو من خلال تصديهم للأنظمة الاقتصادية الوضعية، والتي هي من صنع البشر ولا تخلو من الثغرات والهفوات، والنظام الاقتصاد

الشيوعي من تلكم الأنظمة، فهو مبنيٌ على أساسين رئيسيين، وهما: القول بأن المادة أساس كل شيء وإنكار الغيبيات أولاً، والتفسير المادي للتاريخ ثانيًا، إلا أن العلماء تصدوا إلى هذا المذهب، ولم يقصروا أبدًا في بيان حقيقته، والبوطي –رحمه الله– من تلكم العلماء الذين لهم باع طويل في دمغ ادعاءات أصحاب هذا المذهب بأدلة وبراهين قاطعة.

وهذا البحث جزء مستل من أطروحتي للدكتوراه التي هي بعنوان: (الفكر الاقتصادي عند محمد سعيد رمضان البوطي –دراسة تطبيقية تقويمية)، حيث يدرس الباحث في أطروحته الأفكار الاقتصادية التي تكلم فيها البوطي –رحمه الله–، وقد خصص جزءًا مما كتبه عن الاقتصاد لنقد المذهب الشيوعي الاقتصادي، وذلك بأسلوب علمي دقيق بعيد عن الانحياز لفئة على حساب فئة أخرى.

وعليه فإن هذا البحث يعرض منهج البوطي –رحمه الله– في نقد المذهب الشيوعي الاقتصادي، ومن ثم يقوم ببيان أساس المذهب الشيوعي الاقتصادي، واذي يتجلى في أساسين اثنين كما أشرنا إليهما سابقًا، وفي الأخير يعرض نقد البوطي –رحمه الله– لهذا المذهب، يليها تعقيب الباحث على هذا النقد، وكل ذلك من خلال مقدمة ومبحثين وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: 1- البوطي 2- المذهب الشيوعي الاقتصادي 3- المادة أساس كل شيء 4- إنكار الغيب 5- النقد.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين، أما بعد:

فمن الركائز الأساسية التي تعتمد عليها حياة الإنسان وفيها قوام المجتمع هو الاقتصاد، وقد خصص الإنسان قسطاً كبيراً من جهوده سعياً وراء الأموال واقتنائها واستثمارها من جهة وكيفية إنفاقها وصرفها من جهة أخرى، وربّما سلك طرقاً غير شرعية في ذلك، ولأهمية الاقتصاد كان لابد من وضع قوانين وقواعد محددة بهذا الصدد، فتكون هذه القواعد والضوابط منظمة لتصرفات الإنسان المالية، وقد حظي الاقتصاد باهتمام بالغ في النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال العلماء قديماً وحديثاً، وكان العلامة محمد سعيد رمضان البوطي -رحمه الله- من تلكم العلماء الذين لهم باع طويل في الموضوع، ولم يقتصر كلامه عن الاقتصاد الإسلامي فحسب، بل قد قام بعرض الأنظمة الاقتصادية الوضعية ونقدها ومقارنتها بنظام الاقتصاد الإسلامي، ومن هذا المنطلق، يسعى البحث لبيان أساس المذهب الشيوعي الاقتصادي ونقده، وذلك من خلال آراء هذا العالم الجليل بهذا الصدد.

وأن هذا البحث مستل، فهو عبارة عن مبحث من أطروحتي للدكتوراه، والتي هي بعنوان: (الفكر الاقتصادي عند محمد سعيد رمضان البوطي- دراسة تطبيقية تقويمية)، في جامعة صلاح الدين/ أربيل بكلية العلوم الإسلامية، قسم الشريعة، التخصص: الاقتصاد الإسلامي.

فمن ضمن **أسباب اختيار الموضوع** هو السعي إلى بيان أن المذهب الشيوعي الاقتصادي مبني على الباطل، وما بُني على الباطل فهو باطل، وكذلك بيان باع الطويل للبوطي في الصدّ لهذا المذهب من خلال مؤلفاته.

وأهمية البحث نابعة من أهمية الاقتصاد نفسه وارتباطه بحياة الناس ارتباطاً مباشراً في معاشهم، وكذلك يتجلى أهمية الموضوع في إبراز وبيان جانب هام من جوانب فقه العلامة البوطي -رحمه الله- ألا وهو فكره الاقتصادي الجبار واجتهاداته وتعليلاته بهذا الصدد.

وأما بالنسبة **لمنهج البحث** فيكون استقرائياً، وما يتبعه من تحليلات واستنباطات، وذلك باستقراء آراء البوطي رحمه الله في المسائل المتعلقة بموضوعات البحث في طيات مؤلفاته، ومن ثم تحليل هذه الآراء.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والتفتيش الكثير في مراكز الرسائل والأطروحات العلمية، ومتابعة منتديات البحوث والرسائل الجامعية على الشبكات الإلكترونية، تبيّن أن هذا الموضوع بهذا الشكل وتحت هذا العنوان لم يتطرق إليه الباحثون سابقًا.

خطة البحث:

فقد اقتضى البحث عن (كلام محمد سعيد رمضان البوطي -رحمه الله- حول أساس المذهب الشيوعي الاقتصادي) أن يكون مقسماً إلى: خلاصة، ومقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة الهوامش، وقائمة بالمصادر والمراجع، وذلك كالآتي:

المقدمة وفيها: الحديث عن اهتمام الشريعة الإسلامية بالاقتصاد، وأسباب اختيار الموضوع وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث فيه، وبيان خطة البحث.

المبحث الأول: منهج البوطي في النقد، وعرض أساس المذهب، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: منهجه في نقد المذهب.

المطلب الثاني: عرض أساس المذهب الشيوعي.

المبحث الثاني: نقد البوطي لأساس المذهب الشيوعي، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نقد القول بأن المادة أساس كل شيء.

المطلب الثاني: نقد التفسير المادي للتاريخ.

المطلب الثالث: التعقيب على نقد البوطي -رحمه الله- لأساس المذهب الشيوعي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وتأتي بعدها الهوامش، وأخيرًا تأتي قائمة المصادر والمراجع.

هذا وأرجو من الله عزّ وجلّ أن يجعل هذا البحث المتواضع موضع نفع وقبول، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبيّنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

المبحث الأول

منهج البوطي في النقد، وعرض أساس المذهب

المطلب الأول: منهجه في نقد المذهب

بما أن المنهج عبارة عن خطوات منظمة أو جملة من القواعد يتخذها أيّ شخص لمعالجة مسألة ما -وربما لمعالجة أكثر من مسألة في آن واحد- ويتتبّعها للوصول إلى النتيجة والتعرف على الحقيقة[1]، فإن النقاد اعتمدوا في نقدهم لأيّ فكرة أو مسألة مناهج نقدية كثيرة، وذلك تبعًا لاختلاف طبيعة هذه الأفكار وما يناسبها من المناهج، فالناقد يشبه الطبيب فكما أن الطبيب يبحث عن العلل ويدرسها لا بقصد كشف المرض والإشارة إليه فحسب، بل بغية الوصول إلى معالجته، وكذلك الناقد، والبوطي -رحمه الله- شأنه شأن غيره من النقاد سلك منهجًا خاصًا لنقد الشيوعية بشكل عام ومذهبها الاقتصادي بشكل خاص.

ومما يميز البوطي -رحمه الله- عن غيره من الذين شأنهم نقد الأفكار والأشخاص وغيرهما أنه صرّح عن منهجه في نقد المذهب الشيوعي، وهذا يدل على مدى دقته وبعده عن تذبذب الآراء، وبُعْده أيضًا عن التناقض في الآراء الذي يقع فيه الكثير ممن يتصدى لمناقشة الأفكار والأنظمة، حيث تحدّث عن أنواع الطرق التي يمكن أن تُتخذ لنقد ومناقشة أيّ نظرية أو فكرة فقال: "هنالك سبيلان يمكن اتخاذ كل منهما أساسًا لمناقشة نظرية من النظريات أو أيّ نظام من الأنظمة، أحدهما: هو سبيل التساؤل عما إذا كان من الممكن أن تكون تلك النظرية أو ذلك النظام أمرًا واقعيًا يستطاع تطبيقه، أم هي نظرية من نوع المثاليات التي تتخيل مجسمة في الذهن ولكنها تتأبّى على الواقع ويلفظها الصعيد التطبيقي، ثانيها: هو البحث عما إذا كانت تلك النظرية أو ذلك النظام يستتبع ضررًا من الأضرار أو يسبب خطيئة من الخطيآت، بقطع النظر عن واقعية ذلك النظام أو عدم واقعيته[2].

بناءً على كلامه فقد وضع منهجين لكل من أراد أن يناقش أي فكرة أو نظام، وهما:

أولاً: واقعية الفكرة المراد مناقشتها:

وذلك بالتساؤل عن إمكانية تطبيق تلك الفكرة أو ذلك النظام في أرض الواقع، هل هذه الفكرة -أو هذا النظام- قابلة للتطبيق؟، أم هي مستعصية غير واقعية لا يمكن تطبيقها بشكل من الأشكال وبحال من الأحوال.

ثانيًا: تسبب الفكرة بإلحاق الضرر بالمجتمع:

وذلك عن طريق التنقيب عمّا إذا كانت الفكرة المراد تقييمها ومناقشتها تتسبب إلحاق ضررٍ من الأضرار بعقيدة الناس أو بالناس أنفسهم، وهل هناك تضاد بين الفكرة والنصوص الشرعية أم لا؟، بغض النظر عن واقعيتها أم لا.

وقد سلك البوطي -رحمه الله- في نقده للمذهب الشيوعي المسلك الأول زاعمًا أن النظام الشيوعي غير قابل للتطبيق أصلاً وأنه غير واقعي، وهو مجرد وهم في الخيال وما إن طُبّق في الواقع ثار الفوضى والضوضاء، ويرى بأنه متى ما طبق في الأرض الواقع ذاك الوقت يحين أن يُكشف أضراره للقاصي والداني، و يُبيّن ما يتولد عنه من مخلفات سلبية على المجتمع، إما إذا كان مستعصيًا وغير قابل للتطبيق فيكفي أن تخبر الناس بذلك، حيث قال: "والذي أراه، أن السبيل الأول أقرب إلينا في صدد مناقشة المذهب الشيوعي من سلوك السبيل الثاني... فإن رأينا بعد هذا البحث أنه شيء يمكن تطبيقه على صعيد المجتمع كما أمكن وصفه فوق صعيد الصفحات، حان الوقت إذ ذاك أن نكشف للناس عن أضراره ومستلزماته الشائنة إذا ماطبق وعمل به.أما إذا تبين أنه نظام وهمي يصلح لأن يعيش في الخيال فقط، فحسبك أن ترشد الناس إلى ذلك، كي يكفوا نفوسهم مؤونة البحث في قانون لا يمكن له أن يلقي بخطوة من وراء سور الوهم والخيال"[3].

إن قوة الناقد هي ما يبطن به سطوره من الإخلاص في النية والمحبة لمهنته وتيقظ الفكر، وما أوتي بعد ذلك من المقدرة على البيان لإيصال كل ما يدعيه ويقوله إلى فكر القارئ وقلبه[4]، ولقد توفرت لدى البوطي -رحمه الله- جميع هذه الصفات، فكان منهجه منهج الناقد المخلص، همه معرفة الخطأ والصواب، وبيان الحقيقة للناس من غير التحيز لغير المنطق والفكر الحرّ، حيث يقول: "سيجدني القارئ غير متحيز لوجهة دون أخرى. وسيجدني لا أحترم إلا المنطق الصحيح والفكر الحر في أي جانب أو نظام. والذي أرجوه، هو أن أجد منه أيضًا عدم التحيز لغير المنطق والفكر الحر... الحر عن سائر أنواع الشهوات والغايات..."[5]، وكان أحد أهدافه من نقد المذهب الشيوعي إرشاد الناس، فإن النقد نوع من أنواع النصيحة[6]، وقد قال النبي ﷺ: ((الدين النصيحة، قلنا: لمن؟، قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[7].

لقد اتسم منهج البوطي -رحمه الله- في عرض الأفكار الشيوعية الاقتصادية ونقدها بالدقة والوضوح، والقوة في الردود، ونرى أن هناك عوامل كثيرة وراء دقة منهجه ووضوحه وقوته، ولكن أبرزها ما يأتي:

1- معرفته الواسعة والدقيقة بالنظام الاقتصاد الإسلامي، فقد كانت معرفته به معرفة مفصلة وشاملة.

2- اطلاعه على النظام الشيوعي، ومعرفته الواسعة بأقوال الشيوعين وآرائهم العقدية والاجتماعية والاقتصادية ما جعلته قادرًا على إبطال الباطل من تلكم الآراء، وهو يذكر بأنه بذل جهودًا فكرية شاقة لاستيعاب الفكرة، وأنه بعد فهم المذهب واستيعابه تبيّن لديه أن الذين يعتنقون الشيوعية أكثرهم لم يفهموا أساس المذهب، ولم يدخل شيء منه في عقلهم عن طريق الاقناع والفهم، وإنما اعتنقوه فقط عن طريق الانبهار والإعجاب[8]، وهذا يدل على أن البوطي -رحمه الله- كان أكثر استيعابا للمذهب الشيوعي من الشيوعيين أنفسهم.

ويمكن أن نلخص أهم جوانب منهج البوطي -رحمه الله- في عرض المذهب الشيوعي الاقتصادي ونقده من خلال النقاط الآتية:

1- المنطق والعقل السليم، كانا مرجعه ومنطلقه في كيفية التعامل مع آراء المذهب عرضًا ونقدًا، وقد ظهر هذا جليًا في أغلب المسائل التي تعرض لها.

2- الحرص على نقل أفكار الشيوعية من كتبهم مباشرة، مع تحري كامل الدقة والحذر في ذلك.

فقد سبق وأن بيّنّا أن البوطي -رحمه الله- كان مطلعًا على آراء المذهب وأنه بذل جهودًا كثيرًا لأجل ذلك، هذا وفر له معرفة الكثير عن المذهب الشيوعي، مما مكنه من نقل آرائهم من مصادرهم مباشرة، وقد ظهر ذلك كثيرًا، فمثلاً عندما يبيّن أساس المذهب الشيوعي يأتي بنص وبعده يقول: "وهذا التلخيص لفلسفة ماركس إنما أخذناه من شروح أصدقاء ماركس أنفسهم، كي لا ندع أي نقد يتجه إلينا حول تقريره"[9]، وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا داعية لإطالة الموضوع.

3- العدل والإنصاف والوسطية أثناء تعامله مع الفكرة الشيوعية عرضًا ونقدًا، وذلك عملاً بمبادئ الخطاب الإسلامي، فالوسطية من أهم أسس ومبادئ الخطاب الإسلامي، والتي تعني الاعتدال وعدم الإفراط ولا التفريط[10].

المطلب الثاني: عرض أساس المذهب الشيوعي

لقد تضمن المطلب السابق منهج البوطي -رحمه الله- في نقد المذهب الشيوعي، حيث تناولنا فيه السُبل التي اتخذه في نقده لهذا المذهب، وبيّنّا فيه كيفية تعامله مع آراء الشيوعيين، وفي هذا المطلب سنعرض أساس المذهب الشيوعي، إذ إنه قسّم المذهب الشيوعي إلى الأساس والفروع، وبعد تناول أساس المذهب الشيوعي نبيّن كيفية نقده له، وأما فروع المذهب الشيوعي فهو موضوعنا في المبحث اللاحق -إن شاء الله-.

إن دراسة المذهب الاقتصاد الشيوعي دون دراسة إطار عام للفلسفة الشيوعية هي ضرب من خسارة الجهد وإضاعتها فيما لا فائدة منه، بغض النظر عن إخلالها بالموضوعية العلمية، ولا سيّما إذا كان الهدف من هذه الدراسة توضيح علاقة هذا الاقتصاد بالدين، ومما يؤكد على ذلك واقع المؤلفات الشيوعية، فمؤلفات الفلسفة الشيوعية هي كتب اقتصادية شيوعية، والعكس صحيح فإن الكتب الاقتصادية

الشيوعية هي أيضًا كتب فلسفية بامتياز، بحيث يكون الفصل بينهما شبه مستحيل، وعلى ذلك فإن عرض المذهب الاقتصادي الشيوعي مقترنًا بفلسفته العامة وممزوجًا به أمر لا بدّ منه[11].

لقد اهتمت الشيوعية اهتمامًا كثيرًا بالاقتصاد، وزيادةً على ذلك فقد اعتبرت الاقتصاد أنه العامل الوحيد الذي يحرك الحياة برمتها، وأنه يتصرف في الأقدار بعيدًا عن إرادة الإنسان واستعداداته وفطرته وطاقته، فالأقدار خاضعة دائمًا للعوامل الاقتصادية، أو منشأها هذه العوامل[12]، وعليه فإن الشيوعية تقوم على أساس أن كل شيء في الوجود ما هو إلا أثر من آثار المادة، فهي التي تكوّن أحداث التاريخ ووقائعه[13].

وقد أشار البوطي -رحمه الله- إلى هذا الأساس الذي بُني عليه الشيوعية، حيث يقول: "أما الأساس -يقصد أساس المذهب الاقتصاد الشيوعي-: فهو الفلسفة الماركسية التي تتلخص في زعم أن الأحداث التاريخية كلها إنما تكوّنها المادة فحسب أو تكوّنها المنافع المادية لدى الجماعات ، أي: إن القصد إلى المنافع المادية المحسوسة هو الذي يقود الحركة الحضارية والاجتماعية والفكرية والوجدانية عبر التاريخ والدهور"[14]، فالمادة في نظر الشيوعية هي أقدم الموجودات وأولها، وعليه فإن كل الموجودات التي ظهرت بعد ذلك ما هي إلا ثمرة المادة ونتيجتها، كالإحساس والفكر والروح وغيرها[15].

وبناءً على ما سبق يمكن أن نلخص أساس المذهب الاقتصاد الشيوعي إلى ما يأتي:

أولاً: المادة أساس كل شيء وإنكار الغيبيات:

فالشيوعية تنكر الغيب، ولا تؤمن إلا بالمادة وحدها، وتعتقد أن المادة أصل الأشياء، وأن العالم بكل ما فيه مادي محض، وجميع ما فيه شكل من أشكال المادة، فالإنسان والحياة والكون مادة، وأن المادة وجدت أولاً، وبعدها وجد الفكر والإحساس والوجدان، ولكنها تطورت كما تتطور المادة، فجميع مظاهر الحياة عبر التاريخ إن هي إلا مادة[16].

ويعتقد الشيوعيون أن المادة فيها من القدرة ما تتمكّن به من تشكيل وصناعة نفسها بحسب المؤثرات الخارجية، ولها القدرة أيضًا على التكيّف وفق حاجاتها، وبناءً على هذا فإن الحياة والإنسان والكون هو عبارة عن مادة فحسب، فهي تشكّل أصل ومنشأ كل شيء لأنها أزلية فلا نهاية لها ولا بداية، فإن الموجود هو ما يُحس به، وما لا يُحس لا وجود له[17].

إن أمور الغيب لدى الشيوعية ما هي إلا خرافة صنعها رجال الدين بغية أكل أموال الناس بالباطل، وأساسًا على هذا الفهم فهم يكفرون بالله وينكرونه، ولا يوجد شيء اسمه البعث والحساب والجنة والنار، وغيرها من الغيبيات، حيث يقول ماركس في مقولته الشهيرة: "الدين أفيون الشعوب"، ويقول أيضًا: "إنه -الدين- الغذاء الخادع للضعفاء، لأنه يدعوهم إلى احتمال المظالم في الوقت الذي لا يتمكن من إزالتها"[18]، ويقول في موضع آخر: "لا إله والحياة مادة"[19]، ويقول لينين: "ليس صحيحًا أن الله هو

الذي ينظم الأكوان وإنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية، اختلقها الإنسان ليبرر عجز نفسه، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز"[20].

أما المشاعر والأفكار والعقل فهي مجرد إفرازات يفرزها الدماغ ضمن نشاطه الوظيفي كما تفرز المعدة العصارات لهضم الأطعمة، ومجرد انعكاس للوقائع المادية، يقول ماركس: "إن حركة الفكر ليست إلا انعكاسًا لحركة المادة منقولة إلى دماغ الإنسان ومتحركة فيه"، ويقول لينين: "المادة هي الشيء الأول، والإحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معيّن"[21].

وتزعم الشيوعية بأن الحقيقة الوحيدة هي العالم المادي الذي ندركه بحواسنا ونحن جزء من هذا العالم، وأن العقل من إنتاج المادة وليس العكس، وهكذا نرى بأن الشيوعية ومن كانوا على شاكلتهم اتخذوا المادية وسيلة لإنكار الخالق ووجوده، وقد بنى الشيوعيون مذهبهم على إنكار وجود الخالق، وعليه فلا جرم أن ينكروا الغيبيات ويزعموا أن التجارب الشعورية والوجدانية والحالات النفسية ما هي إلا مظهر من مظاهر المادة، وبالأحرى فهي مادة.

وبنوا على إنكارهم لوجود الخالق قواعد، وجعلوا أساس هذه القواعد إخضاع الحياة والعقل والفكر والفنون للمادة، وفسّروا التاريخ وكل ما حدث فيه تفسيرًا ماديًا، وأرجعوا سبب جميع الثورات التي قامت على وجه الأرض على مرّ التاريخ إلى الضرورات الاقتصادية، وأن ارتقاء المجتمع هو ارتقاء الإنتاج فقط لا غيره، وأن تاريخ ارتقاء الإنتاج واقف على كيفية استغلال المادة[22]، وأنهم يعللون بزوغ جميع الأديان ووجودها ناتجة عن تفاعلات اقتصادية بحتة، إذ يقولون: "إن الظروف الاقتصادية هي التي سبّبت ظهور الأديان"، وهذا التفكير للكون والإنسان والحياة والعقل أثر سلبًا على وضع نظرياتهم الاقتصادية[23].

ثانيًا: التفسير المادي للتاريخ:

لقد قلنا في الفقرة السابقة بأن الشيوعين لا يعترفون بالخالق وينكرون الغيب، وقد ذكر البوطي - رحمه الله- بأن المادية التاريخية هي أخطر النتائج المترتبة على القول بأن المادة أساس كل شيء[24]، وهي محاولة لتفسير التاريخ على الأسس المادية، أي على أساس أن المادة خالدة وأزلية، وأنها خلقت كل ما في الكون من مخلوقات، وأن الإنسان والفكر من إنتاج المادة، وأن الوضع الاقتصادي والمادي يكيف نمط الحياة البشرية في أي طور من أطوارها وفي أي وقت من أوقاتها[25]، ويقول البوطي -رحمه الله- في عرض المادية التاريخية: "إذا كان الفكر الإنساني شكلاً معقدًا ساميًا من أشكال المادة، ليس إلا، وإذا كانت الحياة هي الأخرى من بعض ثمارها ونتائجها، فلا بد أن تكون هذه الرحلة التاريخية الطويلة التي قطع الإنسان إلى اليوم ماقطع من أشواطها، هي أيضًا من ثمرات المادة وآثارها... وإذن فلا بد أن تخضع حركة التاريخ الإنساني للقانون ذاته الذي خضعت له حركة المادة في أطوارها وتقلباتها"[26].

وعليه فإن الشيوعيين يرون بأن الصراع بين طبقات المجتمع يؤثر على المجتمع ككل وعلى النظم والمعتقدات أيضًا، فإذا تولت طبقة زمام الأمور في المجتمع فإنها لا تدوم، بل تبرز طبقة أخرى تصارع الطبقة التي قبلها، وتستمر الصراعات بينهما، وعليه فإن الذي يؤثر على أحداث التاريخ إنما هو الصراع بين طبقات المجتمع، وهذا عبارة عن تفسير التاريخ من زاوية واحدة بقطع النظر عن المؤثرات الأخرى، كالدين وغيره[27].

إن الشيوعية تؤمن بالتطور على أساس الصراعات بين طبقات المجتمع، وترى أن هذه الصراعات هي سبب التطور الحتمي، وعليه إذا حدث أي صراع حدث تطور، وإذا كان هناك تطور فثمة صراع قد وقع، وتعتبر هذا قاعدة علمية مثل القاعدة العلمية التي تقول: إذا ارتفع حرارة الحديد تمدد، وإذا وجد حديد ممتد فلا بدّ أن الحرارة قد ارتفع[28].

وتبدأ نظرية التفسير المادي للحياة من أن الإنتاج هو أساس التاريخ البشري وأساس الحياة البشرية كلها، وأن قوى الإنتاج أهم عنصر في الحياة، وهي مقياس يقاس به كل شيء[29]، ويقول البوطي -رحمه الله-: "قوى الإنتاج -حسب رأي الشيوعية- التي يملكها الإنسان ووسائله التي استفادها من الطبيعة، أرغمت الناس على الدخول في علاقات إنتاجية متبادلة، وكان ذلك مؤشرًا زمنيًا سجّل بدء الصراع الإنساني...، من أجل العيش وتطوير أسباب الرفاهية في الحياة"[30].

بما أن العمل يؤدي إلى الإنتاج المادي، إذن فإن العمل محور الحياة، يقول إنجلز: "يقول الاقتصاديون إن العمل هو مصدر كل ثروة، وإنه لكذلك فعلاً، مع الطبيعة التي تقدم له المادة التي يحولها إلى ثروة، ولكنه أكثر من ذلك أيضًا غلى ما لا نهاية إنه الشرط الأساسي الأول لكل حياة بشرية، وإنه لكذلك إلى درجة ينبغي علينا معها أن نقول: إن العمل قد خلق الإنسان ذاته"[31].

ولتوضيح ما سبق كما يشير إليه البوطي -رحمه الله- فإن وسائل الإنتاج بدأت في أطوارها الأولى بأدوات بدائية غير معقدة كالحجارة والفأس وغيرها، فقد كانت آنذاك العلاقات بين الناس بدائية أيضًا، فكان الناس شركاء في اكتساب مستهلكاتهم وطعامهم، وبعد مرور الزمن زادت وسائل الإنتاج تعقدًا وتقدمًا، وبدأ ظهور الصراع بين الناس، فأصبح بعض الناس يملكون وسائل إنتاج متنوعة، والبعض الآخر أصبحوا عبيدًا بين يديهم، ثمّ تكوّن من هذين الفريقين المتقابلين ما يجمع بينهم وهو المجتمع الإقطاعي، فقد أصبح أناس يملكون الأراضي الزراعية، وأصبح الفقراء هم المستأجرين لديهم، وبدافع من تقدم وسائل الإنتاج وتطورها، وبدافع الصراع بين الملاك والفلاحين نشأت طبقة أخرى وهي الرأسمالية، والتي ظهرت عندما توحدت المصالح الجديدة بين أصحاب المال والطبقة الكادحة، وبذلك سقط الإقطاع، وترى الشيوعية أن الرأسمالية لأن فيها طرفان متقابلان وهما أصحاب المال والعمال سيسقط أحد طرفيها ويحل عصر الانتقال إلى التركيب الجديد، وهو الشيوعية.

وعلى هذا فإن جميع ما ظهر في تاريخ الإنسانية من علوم وفنون وأفكار وقيم وآداب، إنما أثاره الصراعات من أجل العيش والمادة[32].

وأخيرًا بعد هذا السرد قد انتهينا من عرض أساس المذهب الشيوعي والذي يكمن في جانبين: أولهما إنكارهم للغيبيات والإيمان بأن المادة أساس كل شيء، وثانيهما تفسيرهم للتاريخ تفسيرًا ماديًا بحتًا، وقد تبيّن لنا من خلال هذا العرض مدى تبحر البوطي -رحمه الله- في معرفة دقائق المذهب الشيوعي وذلك عندما يعرض أفكار الشيوعية في مؤلفاته، فمن خلال اطلاعي على كثير من الكتب والمؤلفات - حتى كتب الشيوعيون أنفسهم- لم أرى أي معلومة مهمة إلا وقد ذكرها في مؤلفاته، لم يكن هذا فحسب بل كان منصفًا وعادلاً وأمينًا فيما ذكره في كتبه عن المذهب الشيوعي، وكيف لا؟، فهو يقول بعدما عرض مواضيع من المذهب الشيوعي: "وأستطيع أن أجزم أنني كنت أمينًا في عرضها، بل إنني لم أقصّر في تجلية جوانب قد تكون غامضة على كثير من أتباع الفكر الماركسي أنفسهم، بل إنني على يقين بأنني لو كنت واحدًا من المؤمنين بالفلسفة الماركسية، لما كنت أكثر اهتمامًا بعرض هذه الفلسفة على خير وجه"[33].

وكل هذا يؤكد ما قلناه في بيان منهج البوطي -رحمه الله- عندما ذكرنا بأنه ذو معرفة تامة ودقيقة بالمذهب الشيوعي، وأنه عادلٌ ومنصف وأمينٌ في كل ما يقوله ويدعيه.

المبحث الثاني

نقد البوطي لأساس المذهب الشيوعي

ذكرنا سابقًا أن أساس المذهب الشيوعي يكمن في شيئين، أولهما: القول بأن المادة أساس كل شيء وإنكار الغيب، وثانيهما: تفسير التاريخ تفسيرًا ماديًا، وقد تعرّفنا على ما تدّعيها أرباب الشيوعية بهذا الصدد، فقد حان الدور على أن نقوم بنقد تلكم الدعوات والأباطيل، وذلك من خلال آراء البوطي -رحمه الله- بهذا الشأن.

المطلب الأول: نقد القول بأن المادة أساس كل شيء

لقد تبيّن لنا فيما سبق أن الشيوعيين أوصلوا المادة إلى درجة الإله إذ تصدر عنها الأشياء وتتحكم فيها، وما من خلق أو فكر إلا هي مصدره، وقد أرادوا أن يحققوا فكرتهم المادية الإلحادية من خلال إسترداد الأفكار الأسرية والأخلاقية والدينية إلى التطورات الاقتصادية، وهذا مما دفع بالبعض إلى التيقّن بأن المذهب الشيوعي مذهب اقتصادي بحت.

وقد انتقد البوطي -رحمه الله- القول بأن المادة أساس الوجود وينبوع الحقائق بما يأتي:

1- عدم وجود دليل علمي على صدق القول بأن المادة هي أصل الأشياء، وأن الروح والإحساس والفكر من ثمار المادة، سوى ما قدّمته الشيوعية على أن الحياة تنشأ عن الحرارة، والحرارة تنشأ بدورها عن الحركة، أي: الحركة + حرارة= الحياة، ويجاب على هذا بالآتي:

أ- عدم وجود أي جهة أن قامت بجمع كل من الحركة والحرارة بما شاءت من التعقيد الكيميائي وبعدها استخرجت منهما حقيقة الحياة.

ب- مما لا ريب فيه أن الحركة والحرارة من أهم خصائص الحياة، لكن مما لا جدال في قواعد المنطق أن خواص الشيء لا تُعبّر عن الجوهر الذاتي له، وعليه فإن كل من الحركة والحرارة وغيرها من العناصر الأساسية للمادة، كالأوكسجين والكربون والهايدروجين وغيرها لا يمكن أن يعبّر عنها بأنها منبع الحياة ومنشأها، أو أن الحياة تكونت من مجموعها أو من تفاعلات قد وقعت بينها وأنشأت الحياة، والصحيح أن الحياة لا ندري جوهرها، وأن هذه العناصر مُظهر لها، كالضياء الساطع على صفحة حائط، فالضياء ليس صفحة الحائط ذاتها، فإنها شرط لتجليه ومُظهر لها[34].

2- لو صح القول بأن المادة هي الأساس والمصدر للروح والحياة وما يتفرع عنها، لاستوجب ذلك أن يكون الإنسان ذا معرفة تامة بالروح وحقيقتها لكون المادة أساسها، ذلك إذا أدرك العقل أصل الشيء ومصدره كان من باب الأولى أن يدرك فروعه وثمراته، ولا يوجد إلى هذه اللحظة أحد من العلماء وفي مقدمتهم أرباب النظرية المادية أن يدرك حقيقة الروح والحياة[35].

إن أحد مؤسسي فكرة الشيوعية يعترف بهذا الواقع ويقر به، حيث يقول إنجلز: "إنه -يقصد العلم- لم ينجح بعد في إيجاد الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى، وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد في إنتاج الهيولى البسيطة أو الأجسام الآحينية الأخرى من العناصر الكيميائية، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة"[36].

3- وجود التناقض بين آراء أئمة المذهب الشيوعي عن أصل الحياة، فمثلاً: بعد إقرار إنجلز -كما أشرنا إليه آنفًا- بعدم تمكن العلم أن يؤكد شيئًا بصدد أصل الحياة، يقول: "سوى أن هذه الحياة يجب أن تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية، ومهما يكن من أمر فلعل فلسفة الواقع تستطيع أن تقدم بعض المعونة في هذا الشأن"[37]، وهذا رجوع واضح عما قاله، فإذا لم يتمكن العلم من معرفة أي شيء عن أصل الحياة، كيف يقال أن الحياة جاءت نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية؟[38].

4- نشأت النظرية المادية في القرن التاسع عشر تحت ظلّ التعريف الظاهري للمادة بأنها "كل ما تقع عليه الحواس"[39]، ولكن لم يعد أن يطلق على الموجود بالمحسوس فقط، وخصوصًا بعد اكتشاف مزيد من خصائص المادة وجزئياتها، وحتى وصولها إلى طاقة، فالمادة التي قال بها الشيوعيون وأسسوا عليها مذهبهم قد تغيّر مفهومها كليًا في القرن العشرين[40].

المطلب الثاني: نقد التفسير المادي للتاريخ

مما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية مهمة ولها دور كبير في المجتمعات الإنسانية، ولكنها ليست هي الوحيدة في تحريك حياة الإنسان، فهناك عوامل أخرى تُعتبر المحرك الأساسي للإنسانية، ومن تلكم العوامل الدين، فإن فقدان العامل الديني ينعكس سلبًا على جميع العوامل الأخرى، وقد انتقد البوطي -رحمه الله- تفسير المادي للتاريخ بأدلة وبراهين دامغة، يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية:

1- إن ادعاء الشيوعية بإرجاع جميع الأحداث التاريخية لأسباب مادية متعارض مع الدوافع والبواعث التي أوجدت هذه الفكرة، فلا يوجد تطابق بينها وبين الواقع، فكان الذي وراء ظهور هذه النزعة دافع عاطفي ووجداني بدرجة أولى، يقول البوطي -رحمه الله-: "يستطيع القارئ أن يتأكد من أن النزعة المادية هذه في نفس ماركس إنما أوجدها تفاعل وجداني مجرّد عن أي معيار من المعايير المادية، يستطيع أن يتأكد من هذا حينما يلاحظ ظروف ماركس النفسية -يقصد قصته العاطفية التي ذكرناها سابقًا- التي جاءت بين يدي نظريته هذه"[41]، ويقول بعدها: "إذًا، كيف نصدق ما يدّعيه ماركس من أن المادة هي وحدها التي تقود زمام الحضارة والأفكار والوجدان؟ مع أن دعواه هذه نفسها على ضخامتها إنما انقدحت من حركة وجدانية لم يستطع لا هو ولا أكبر رأس من رؤوس الفكر المادي ضبطها في قالب من قوالب المادة"[42].

2- إن الذين وضعوا وحددوا الطرف الأعلى والطرف الأسفل في نظام الحياة البشرية هم الماديون، ويقررون على ضروريتها وحتميتها، حيث رسموا هذا النظام كيف ما يروق لهم من أنواع الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فمع أنهم أحرار فيما يطرحون من الأفكار والآراء، إلا أنهم لا يستطيعون أن يتحدّثوا عن حتمية ما يقولون، يقول البوطي -رحمه الله-: "الأمر الذي لا يملكه الماديون ولا غيرهم، هو أن يتحدّثوا عن حتمية هذا الذي وضعوه -يقصد النظرية المادية-، فبرمجوه، فجعلوه في تسياره خاضعًا للمؤشر الذي ابتدعوه هم أنفسهم، ثم أقبلوا إلى العالم كله يقولون: هذا قدركم الذي لابدّ أن تواجهوه..."[43].

3- قوى الإنتاج ووسائله هي التي تمثل ينبوع الحركة التاريخية حسب رأي الشيوعية، وأن العلاقات الإنتاجية بين الناس تتطور وتنمو عن طريق الصراع بين الطبقات، لذا فإن الواقع التاريخي هو الذي يحدد صدق وكذب جزء أو كل دعواهم، وعليه فلا يوجد أحد من علماء الاجتماع والتاريخ يحدّثنا عما يسمى بالشعوب البدائية، إلا وقد تحفظ في أقواله حول ما يقال عن تلكم الشعوب، ولم يأت إلا بمستندات ضعيفة وهمية لا تعطي أكثر من أدنى درجات الظنون، فكيف يمكن أن نبني على هذه المستندات الضعيفة قرارات ونجعلها حتمية، يقول البوطي -رحمه الله-: "فإذا كانت معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني تعاني من هذا التخلف والجهل، فكيف يصح أن نصدر عنه قرارات، تعود إلى عهده القصي البعيد الذي لم يعه الإنسان بعد، ثم نبني عليها أحكامًا حتمية نزعم أنها قدر الناس جميعًا؟"[44].

4- يقول ماركس: "يدخل الناس في الإنتاج المادي لحياتهم في علاقات محددة ضرورية ومستقلة عن إراداتهم"[45]، فلو كان الإنسان لم يكن يملك سوى الدافع الاقتصادي في حياته السلوكية العامة، وأن شعوره بهذا الدافع كان قسريًا من غير حاجة إلى التفكر والقرار، لكان طابع حياة الإنسان طابع حياة الحيوانات، يقول البوطي -رحمه الله-: " لو صح أن الإنسان عندما فتح عينيه على هذه الحياة، لم تكن تعتلج بين جوانحه وفي أحشائه إلا البحث عن الطعام والشراب والمأوى، إذن لكان طابع حياته هو طابع حياة البهائم ذاته، لا يعلو أحدهما على الآخر بشيء، أي فما كان ينبغي أن ينزع إلى دين يدين به، ولا أن يتأثر بقيمة جمالية تستحوذ على لبه، ولا أن ينصرف إلى فن استجابة لدعوة وجدانه"[46].

5- تذكر الشيوعية في تطور المجتمعات من المشاعية البدائية مرورًا بالعبودية إلى الإقطاع إلى الرأسمالية ثم الشيوعية، إن الإقطاع نتج عن نظام المشاعية، وأن الرأسمالية انبثقت عن نظام الإقطاع، وهكذا حسب نظريتهم التاريخية، ولكن هذه المقولات غير صحيحة، وهناك شواهد تاريخية ذكرها البوطي -رحمه الله- تثبت عدم صحة ما يدعون، وهي ما يأتي[47]:

أ- تفاقم الإقطاع عند اليونانيون القدماء، وانتشر الفساد ولم ينبثق أي أثر للرأسمالية المتمثلة في تحالف البورجوازية مع طبقة الفقراء والكادحين، بل نهض مصلحون وأقاموا في ظل نظام الإقطاع نمطًا جديدًا من التكافل الاجتماعي، من غير الاستعانة بتحالف البورجوازيين مع البروليتاريا، والإضطرار بحتمية صراع الطبقات.

ب- والإقطاع عند الرومان فقد تراكم تراكمًا شرسًا حتى أنذر بالدمار والفساد، ومع ذلك لم تتحقق نبوءة الشيوعيين بتحالف البورجوازيون مع الدهماء، بل حدث العكس تمامًا فقد تحالف البورجوازيون مع الإقطاعيون ذاتهم للقضاء على الدولة الرومانية.

ت- كان الإقطاع عند الفرس متفشيًا، ولم تحل المشكلة على الرغم من تحالف البورجوازية مع الدهماء، بل ظل الحال كما هو عليه إلى أن جاء العلاج عن طريق الفتح الإسلامي، ومن المعلوم أن المسلمين لم يكونوا لا بورجوازيين ولا دهماء، وإنما كان همهم إيصال الوحي الإلهي إلى الناس.

ث- لو ترك أمر الجزيرة العربية حسب المنهج الذي ينص عليه المادية التاريخية للزم ألا يحدث فيها أي تغيير إلى حين تفاقم الإقطاع وانتشار الفساد واستغلاله، ولكن الذي وقع كان بعث النبـي ﷺ في الجزيرة العربية، فغيّر أحوال الجزيرة العربية رأسًا على عقب، فأين هي مقدمة الإقطاع المتفاقم الذي كان من الواجب أن يمهد لما وقع؟، وأين هو تحالف البورجوازيون مع الدهماء للقيام بالانتقال من الإقطاع إلى المرحلة التي تليه وفقًا للمادية التاريخية؟، بل وأين كان الدوافع الاقتصادية فيما حدث؟، فلقد هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة متجردًا من جميع ما كان يملك من الأموال، وكان الصحابة كذلك، فالذي حدث يُنقض النظرية المادية للتاريخ التي قال بها الشيوعية.

6- وجود تناقضات في تطبيق النظرية المادية للتاريخ، فقد كان من أواسط القرن التاسع عشر أن وُجد مؤشرات تدّل على أنه قد حان الوقت للثورة الاشتراكية لتستولي على وسائل الإنتاج والحكم، في كثير من الدول الأوروبية، فمثلاً بريطانيا، فقد تطورت فيها وسائل الإنتاج تطورًا كبيرًا، وتخلفت فيها علاقات الإنتاج تخلفًا جسيمًا، فمع أن هذه هي المؤشرات التي تدّل على أن وقت نشوب ثورة الكادحين قد حان وبشكل حتمي، إلا أن بوادر ظهور هذه الثورة معدومة، ومما يزيد الطين بلة أن هذه الثورة قد نشبت في مكان آخر في غير موعده، ودون وجود أي مقتضيات المادية التاريخية التي تجب توافرها، فقد نشبت الثورة في روسيا وهي لم تخرج من عهد الإقطاع بعد، وهكذا فقد قطعت الثورة الاشتراكية طريق الثورة الرأسمالية البورجوازية التي كان لها أحقية السبق حسب النظرية التاريخية، وهذا التناقض مدلول خطير يحطم الدعامة الكبرى التي تعتمد عليها أرباب نظرية المادية التاريخية[48].

وكذلك حسب النظرية المادية أن الطبقة الكادحة من الفلاحين والعمال هي التي تدير دفة الأمور وتمسك زمام الحكم، إلا أن الواقع مغاير تمامًا، ففي الدول التي قامت فيها الاشتراكية أزيحت الطبقة الكادحة عن الطريق من قبل الحزب الشيوعي، بعدما قامت بدور الجندي الباسل للحزب الشيوعي في القضاء على الأنظمة التي سبقتها[49].

7- حسب قانون النظرية التاريخية فإن القديم يختفي، وينشأ الجديد، وأن النظام الشيوعي سيحلّ محل النظام الرأسمالي، فإن الشيوعية أيضًا ستنهار، وسيحل محلها نظامًا آخر، وبذلك تسقط فكرة المادية التاريخية وحتميتها التي جاءت بها، إلا أن الشيوعية قالوا بهذه النظرية وطبقوها على غيرهم ونسوا أنفسهم، وهذا يدل على فساد نظريتهم، وذلك فإن وسائل الإنتاج مهما تطورت، لا بدّ أن تأتي بعدها ما هو أرقى وأفضل، ما دامت وسائل الإنتاج من جنس المادة[50]، حيث يقول البوطي -رحمه الله- بهذا الصدد: "لماذا أمكن أن تتحول البرجوازية من طبقة وطنية صالحة إلى طبقة فاسدة مستغلة مع الزمن، ولا يمكن أن يحدث هذا التحول ذاته بالنسبة لمن يمسك بزمام الحكم من بعدهم من البروليتاريين؟، لماذا؟، وما الفرق؟، وما دليل نزاهة هؤلاء عن أن يتحولوا إلى مثل ما آل إليه وضع سلفهم من قبل؟[51].

وقد رأينا أن هذا قد حدث بالفعل، فإن الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وفي دول شرق أوروبا قد سقطت وزالت[52].

المطلب الثالث: التعقيب على نقد البوطي -رحمه الله- لأساس المذهب الشيوعي

ما سبق كان عصارة نقد البوطي -رحمه الله- لأساس المذهب الاقتصادي الشيوعي، القائل بأن الحياة تكونت من المادة، وهي التي أنتجت الفكر والإحساس والعقل، وأن جميع الأحداث التي وقعت في التاريخ كانت سببها دوافع مادية، ويمكن أن نعلق على ما ذكره كالآتي:

1- لقد رأينا عند اطلاعنا على نقد البوطي -رحمه الله- لما يدعيه الشيوعيون، أنه يقوم بنقدهم بالأدلة العلمية والبراهين المنطقية، بعيدًا عن الإلمام بالأدلة النقلية، ويرجع سبب ذلك إلى أن الشيوعيين لا يعترفون

بالمسائل الدينية ولا يقرون بها، وهذه نقطة إيجابية يحسب للبوطي -رحمه الله-، إذ أنه يناقشهم بأسلحتهم التي يحاربون بها، ويجادلهم بقوة العقل والمنطق التي يؤمنون بها.

2- جميع الانتقادات التي وجهها إلى الشيوعية وادعاءاتهم انتقادات سديدة وفي محلها، فلا يستطيع أحد من دعاة الشيوعية أن ينكرها، وخصوصًا أن العلم الحديث يوم بعد يوم يؤكد ما ذكره بهذا الشأن، فمثلاً عندما ينتقد رأيهم بأن المادة هي مصدر الحياة، وأنها خُلقت نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية للمادة، فإن الذي يؤكد ما انتقد به عقد مؤتمر عالمي من قبل ستة من جهابذة علماء الأحياء حول الوصول إلى فهم شيء ولو بسيط عن أصل الحياة، ونشأتها على سطح الأرض، أو إلى معرفة مدى إمكانية إنشاء الحياة عن طريق التفاعلات الكيميائية، حيث عُقد الؤتمر في نيويورك سنة 1959م، وفي نهاية المطاف قرر المؤتمرون بالإجماع بناءً على بحوثهم، أن شأن الحياة لا يزال غامضًا ومجهولاً، وأنه سرٌ أبعد من أن يكون مجرد تفاعلاً كيميائيًا لمواد عضوية معينة[53].

3- يمكن أن نضيف إلى ما انتقد بها البوطي -رحمه الله- انتقادات أخرى لم يتطرق إليها، وهي ما يأتي:

أ- إن القول بأن المادة هي التي نشأت الحياة، وأن الدين من صناعة الإنسان ليسد به ما عجز عنه، يخالف الفطرة البشرية السليمة ويصادمها، فالفطرة الإنسانية تستقيم إذا ما توازن بين المادة والروح وبين الدين والدنيا، أما الفكرة الشيوعية فمبنية على إنكار الدين، ولذلك نرى أن الشيوعيين يحاربون الأديان بشكل عام[54]، ومما يؤكد على هذا قول النبي ﷺ: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...))[55].

ب- إن الدعوى بأن الدين من صنع البشر سواء أكانت من قبل الطبقة الغنية أم الفقيرة مردود وباطل، فلو كان من صنع الطبقة الغنية لما فرض عليهم التزامات مالية ويمنعهم من بعض المعاملات المالية، فمثلاً أن الإسلام فرض على الأغنياء الزكاة، وحذرهم من منعها، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ ﴾﴿ سُورَةُ الفَاتِحَةِ ﴾[56]، وأن مصارف الإنفاق عند المسلمين حصر في ثلاثة مجالات رئيسة إحداها مصرف الزكاة [57]، وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى حرّم الربا منعًا لما يترتب عليه من الأضرار على الفقراء، وأعلن الحرب بحق من يفعله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ الفرقان الشعراء النمل القصص العنكبوت الروم لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة ﴾[58]، فلو كان الدين من صنع هذه الطبقة لجعلوه حسب مصالحهم.

وأما لو كان الدين من صنع الطبقة الفقيرة لما دخل فيه أحد من الأغنياء، لتضررهم به من الناحية المادية، ولكن الواقع يقول عكس ذلك، فعندما ظهر الإسلام دخل فيه الأغنياء أمثال خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا، كما دخل فيه الفقراء، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن هذا الدين من عند الله لا من صنع هذه الطبقة أو تلك.

ت- إنّ المادة مخلوقة شأنها شأن غيرها من المخلوقات، لها البداية ولها النهاية، فهي ليست أزلية وليست أبدية، بل مصيرها الفناء والزوال[59]، ومما يؤكد على ذلك قانون تحطيم الشموس، الذي يقول بأن ذرات الشموس تتحطم بفعل الحرارة المرتفعة، ومن المعروف أنّ الذرة عندما تتحطم فإنها تفقد جزءًا من كتلتها ويتحول الجزء المفقود إلى طاقة، فكلما مرّ يوم بل لحظة على أي شمس فإنها تفقد جزءًا من كتلتها وإن كان يسيرًا، وهذا يعني بالضرورة أنه يأتي الوقت الذي تستنفد الشموس كتلتها وتنفى نهائيًا[60]، وقد قال تعالى: ﴿ ﴾[61].

ث- إن الشيوعية بنت نظريتها المادية التاريخية مع كثرة العوامل التي تؤثر على الحياة البشرية على عامل واحد وهو الاقتصاد، وجعلته إلهًا يُعبد، وليس هذا فحسب فهي لا تدرس هذا العامل في تاريخ العالم، وإنما تدرسه في تاريخ أوروبا فقط ثم تعمم حتمية ما درستها على البشرية كلها، فالشيوعيون يعتبرون أن تاريخ أوروبا هو تاريخ العالم، ويقررون حتمية ما جاءت في نظريتهم في تاريخ العالم استنادًا إلى ما حدث في أوروبا، وهذا خطأ كبير، وفرضًا لو قلنا بصحتها، فإنها لا يعتدل بها الميزان أبدًا، وذلك بسبب وجود تفاوتات بين تاريخ أوروبا مع تاريخ البقع الأخرى على سطح الأرض[62].

ج-نظرية الصراع بين الطبقات التي تقول بها الشيوعية تولد الفرقة والحقد بين أفراد المجتمع، حيث تثير العمال على أصحاب الأموال، وتدفعهم إلى إلحاق الأضرار بمصانعهم وأموالهم، والانتقام منهم عن طريق تخريب آلات المصانع أو الإضراب عن العمل، وأبعد من ذلك فإن ماركس يدعو الطبقة الكادحة إلى الثورة لتحقيق أهدافها وإن كانت هذه الثورة ثورة دموية عملاً بالقول الغاية تبرر الوسيلة[63].

وفي الأخير نقول: يزعم ماركس ورفقائه من خلال النظرية المادية التاريخية أن العقل البشري قادر على أن يطرح قوانين كلية عامة، وأن حركة الحياة والكون تسير وفقها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وهذا زعم باطل قائم على الوهم والقياسات الباطلة والخداع، فمهما بلغ عقل الإنسان من درجة الكمال فإنه يبقى قاصرًا في معرفة الأمور الغيبية، لأن هذه الأمور فوق طاقة العقل[64]، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ﴾[65] ، ولذلك نرى بأن أرباب المذهب أنفسهم يتراجعون عن أقوالهم في كثير من الأمور، فمثلاً كما أشرنا إليه سابقًا بأن الشيوعية اتخذت عنصر الاقتصاد إلهًا وجعلته محرك الحياة البشرية، وأن جميع الأحداث التاريخية حدثت بدوافع

اقتصادية، إلا أن إنجلز في أواخر أيامه أنكر أن يكون للاقتصاد أثرًا مباشرًا على الأنشطة الفكرية، حيث يقول: "أنه على ماركس وأنا يقع بعض التبعة في توكيد العوامل الاقتصادية وإعطائها فوق ما تستحقه من التقدير...، ولكن العوامل الأخرى السياسية -من دساتير وشرائع ومؤثرات ذهنية ونظريات فلسفية وعقائد دينية- كلها تسيطر على منازعات التاريخ، وتقرر أشكالها في كثير من الأحيان"[66]، وعليه فإن العامل الاقتصادي هو من أهم العوامل الفعالة في التاريخ، ولكنه ليس هو العامل الوحيد الذي يدير جميع الأحداث التاريخية ويحركها، وقد أوضح البوطي -رحمه الله- ذلك بوضوح تام، وبأدلة وبراهين دامغة تكسر ظهر كل من يدعي هذه الادعاءات الباطلة.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة توصل الباحث إلى جملة من النتائج، ولعل من أهمها ما يأتي:

أولاً: سلك البوطي -رحمه الله- منهجًا خاصًا به في النقد، وذلك بالتساؤل عن إمكانية تطبيق المذهب الاشيوعي الاقتصادي، وزعم أن النظام الشيوعي غير قابل للتطبيق أصلاً وأنه غير واقعي، وهو مجرد وهم في الخيال وما إن طُبّق في الواقع ثار الفوضى والضوضاء.

ثانيًا: إن أساس المذهب الشيوعي الاقتصادي شيئين، الأول منهما هو القول بأن المادة أساس كل شيء وإنكار الغيبيات، والثاني هو التفسير المادي للتاريخ.

ثالثًا: عرض البوطي -رحمه الله- أساس المذهب الشيوعي بشكل دقيق وواضح، وكان ينقل آرائهم بهذا الصدد من مصادرهم الأصلية.

رابعًا: إن الشيوعيين أوصلوا المادة إلى درجة الإله إذ تصدر عنها الأشياء وتتحكم فيها، وما من خلق أو فكر إلا هي مصدره، مع أنه لا يوجد دليل علمي على صدق القول بأن المادة هي أصل الأشياء، وأن الروح والإحساس والفكر من ثمار المادة.

خامسًا: هناك تناقض واضح بين آراء أئمة المذهب الشيوعي عن أصل الحياة ومنبعها، وهناك تناقضات أيضًا في تطبيق النظرية المادية للتاريخ على جميع الأماكن وفي جميع الأزمان.

سادسًا: جميع الانتقادات التي وجهها البوطي -رحمه الله- إلى الشيوعية وادعاءاتهم انتقادات سديدة وفي محلها، فلا يستطيع أحد من دعاة الشيوعية أن ينكرها، وخصوصًا أن العلم الحديث يوم بعد يوم يؤكد ما ذكره بهذا الشأن.

الهوامش

(1) مناهج البحث العلمي: (5)، ومنهج البحث الأدبي: (13).
(2) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (9).
(3) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (9،10).
(4) النقد والنقاد المعاصرون: (26).
(5) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (11).
(6) لماذا نخاف النقد؟: (17).
(7) صحيح مسلم: (74/1)، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم (55).
(8) نقض أوهام المادية الجدلية: (16).
(9) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (12).
(10) الخطاب الإسلامي المعتدل مفهومه وخصائصه ووظائفه والتحديات التي تواجه: (105).
(11) العلمانية: (293).
(12) الإسلام ومشكلات الحضارة: (91).
(13) أضواء على المذاهب الهدامة: (35،36).
(14) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (12).
(15) نقض أوهام المادية الجدلية: (46).
(16) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (12)، والشيوعية، محمد بن إبراهيم الحمد: (53).
(17) الشيوعية وموقف الإسلام منها: (78).
(18) أضواء على المذاهب الهدامة: (36).
(19) حركات ومذاهب في ميزان الإسلام: (15).
(20) الشيوعية، محمد بن إبراهيم الحمد: (54).
(21) الشيوعية وموقف الإسلام منها: (79).
(22) الشيوعية والإسلام: (39).
(23) نقد أصول الشيوعية: (77).
(24) نقض أوهام المادية الجدلية: (55).
(25) مذاهب فكرية معاصرة: (281).
(26) نقض أوهام المادية الجدلية: (56).
(27) الشيوعية، محمد بن إبراهيم الحمد: (54).
(28) الشيوعية، أحمد عبد الغفور عطّار: (85).
(29) مذاهب فكرية معاصرة: (283).
(30) نقض أوهام المادية الجدلية: (56).
(31) نصوص مختارة: (123).
(32) نقض أوهام المادية الجدلية: (57-59).
(33) نقض أوهام المادية الجدلية: (60).
(34) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (167،168).
(35) نقض أوهام المادية الجدلية: (109،110).
(36) أنتي دوهرنغ: (90).
(37) أنتي دوهرنغ: (90).
(38) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (169).
(39) الشيوعية وموقف الإسلام منها: (80).
(40) نقض أوهام المادية الجدلية: (118،119).
(41) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (14).
(42) المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام: (15).
(43) نقض أوهام المادية الجدلية: (238).
(44) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (207،208).
(45) القضايا الأساسية في الماركسية: (41).
(46) نقض أوهام المادية الجدلية: (244).

(47) نقض أوهام المادية الجدلية: (252- 256)، والمذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (212- 215).
(48) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (217،218).
(49) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (224).
(50) نقض أوهام المادية الجدلية: (271)، الشيوعية وموقف الإسلام منها: (132).
(51) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة: (223).
(52) الشيوعية وموقف الإسلام منها: (132).
(53) قصة التطور: (11-23).
(54) الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة: (94).
(55) صحيح البخاري: (2434/6)، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، برقم (6226).
(56) سورة التوبة: من الآية (34).
(57) النفقات العامة لبيت المال في الدولة العربية الإسلامية في عهدي الخلافة الراشدة والخلافة الأموية- دراسة تأريخية اقتصادية: (197).
(58) سورة البقرة: (178،179).
(59) الشيوعية وموقف الإسلام منها: (83).
(60) الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها: (182).
(61) سورة الرحمن: (26،27).
(62) الإسلام ومشكلات الحضارة: (94،95).
(63) الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها: (188).
(64) الشيوعية وموقف الإسلام منها: (137).
(65) سورة الإسراء: من الآية (85).
(66) شريعة الله حاكمة: (75).

Sources and references
After the Holy Quran

1- Anti-Dühring: Friedrich Engels, translation: Dr. Fouad Ayoub, without edition number, Damascus House, Damascus - Syria, without publication year.
2- Communism and Islam: Abbas Mahmoud Al-Akkad, Ahmed Abdel Ghafour Attar, second edition, Dar Al-Andalus, Beirut - Lebanon, 1972.
3- Communism and Islam's position on it: d. Hamoud bin Ahmed Al-Rahili, first edition, Library of Science and Governance, Medina - Saudi Arabia, 2003 AD.
4- Communism: Ahmed Abdel Ghafour Attar, first edition, Dar Al-Andalus, Beirut - Lebanon, 1980 AD.
5- Communism: Muhammad bin Ibrahim Al-Hamad, first edition, Dar Ibn Khuzaimah, Riyadh - Saudi Arabia, 2002 AD.
6- Contemporary Doctrines of Thought: Muhammad Qutb, Seventh Edition, Dar Al-Shorouk, Cairo - Egypt, 1993.
7- Contemporary Intellectual Trends and Islam’s Position on them: Dr. Juma’a Al-Khouli, First Edition, Islamic University Press, Madinah Al-Munawwarah - Saudi Arabia, 1986 AD.
8- Criticism and Contemporary Critics: Dr. Muhammad Mandour, without edition number, Dar Nahdet Misr, Cairo - Egypt, 1997 AD.
9- Criticism of the Origins of Communism: Saleh Al-Luhaidan, Second Edition, Al-Haramain Library, Riyadh - Saudi Arabia, 1984 AD.
10- Fundamental Issues in Marxism: Plekhanov, translation: Hanna Abboud, without edition number, Damascus House, Damascus - Syria, without publication year.

11- God's Law is Governing: Dr. Ali Greisha, second edition, Arab Heritage House, Beirut - Lebanon, 1987 AD.
12- Islam and the Problems of Civilization: Sayed Qutb, Thirteenth Edition, Dar Al-Shorouk, Cairo - Egypt, 2005 AD.
13- Lights on the Destructive Doctrines: Abdul Qadir Shaybah Al-Hamad, first edition, King Fahd National Library, Riyadh - Saudi Arabia, 2012.
14- Literary research method: Dr. Ali Jawad Al-Taher, without edition number, Al-Ani Press, Baghdad - Iraq, 1970 AD.
15- Moderate Islamic discourse: its concept, characteristics, functions and challenges: Pro. Dr.. Wael Abdel Karim Mohamed, M. Hussein Jassim Yousef, research published in the Journal of Islamic Sciences, Tikrit University, number: (11), volume: (26), publication date: 8/12/2019.
16- Monotheistic Doctrines and Contemporary Philosophies: Dr. Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti, Fourth Edition, Dar Al-Fikr, Damascus - Syria, Dar Al-Fikr Contemporary, Beirut - Lebanon, 2014.
17- Movements and Doctrines in the Balance of Islam: Fathi Yakan, Third Edition, Al-Resala Foundation, Beirut - Lebanon, 1979 AD.
18- Public Expenditures of the House of Money in the Arab Islamic State in the Era of the Rightly-Guided Caliphate and the Umayyad Caliphate - Historical Economic Study: Dr. Nuri Azzawi Hammoud Latouf, research published in the Journal of Islamic Sciences, Tikrit University, Issue: (8), Volume: (26), Publication date: 10/20/2019.
19- Rejecting the illusions of dialectical materialism: Dr. Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti, 19th edition, Dar Al-Fikr Contemporary, Beirut - Lebanon, Dar Al-Fikr, Damascus - Syria, 2009.
20- Sahih Al-Bukhari: Abu Abdullah Muhammad bin Ismail Al-Bukhari Al-Jaafi (deceased: 256 AH), investigation: Muhammad Zuhair bin Nasser Al-Nasser, first edition, Dar Touq Al-Najat, Beirut - Lebanon, 1422 AH.
21- Sahih Muslim: Abu Al-Hussein Muslim bin Al-Hajjaj Al-Qushayri Al-Nisaburi (T.: 261 AH), investigation: Muhammad Fouad Abdel-Baqi, without edition number, Issa Al-Babi Al-Halabi and Partners Press, Cairo - Egypt, 1955 AD.
22- Scientific Research Methods: Abdul Rahman Badawi, third edition, Publications Agency, Kuwait - Kuwait, 1977.
23- Secularism: Safar bin Abdul Rahman Al-Hawali, without the edition number, Dar Al-Hijrah, Al-Khobar - Saudi Arabia, without the year of publication.
24- Selected texts: Frederick Engels, translation: Wasfi Al-Bunni, without edition number, Progressive Library, without mentioning the place of publication, 1972 AD.
25- The Brief on Contemporary Religions and Doctrines: Nasser Abdullah Al-Qafazi and Nasser Abdul-Karim Al-Aql, first edition, Dar Al-Sumaei, Riyadh - Saudi Arabia, 1992.
26- The Economic Doctrine between Communism and Islam: Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti, first edition, Umayyad Library, Damascus - Syria, 1959 AD.
27- The story of evolution: Dr. Anwar Abdel-Alim, without the edition number, Dar Al-Qalam and Al-Nahda Library, Cairo - Egypt, without the year of publication.

28- Why do we fear criticism?: Salman bin Fahd Al-Awda, without edition number, Scientific Bureau, without mentioning the place of publication, 1412 AH.